الأوائل

لأبي بكر تقي الدين بن زيد الجراعي الحنبلي

٨٨٣ هـ

تحقيق

عادل الفريحات

عن نسخة فريدة بخط يد المؤلف

دار الإيمان

للطباعة * والنشر * والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

● دمشق - سورية - شارع سلم البارودي -
● ص.ب ١٠٠٦٥ دمشق - هاتف ٢٤٣٣٨٦
● بيروت - ص.ب: ١١٣/٥٣٣٥ - تلكس: ٢١٦٣٢ أوصاف

المُقَدِّمة

[١ ـ التأليف في الأوائل ٢ ـ المؤلِّف ٣ ـ الكتاب]

أولاً ـ التَّأْليف في الأوائل:

عِلْمُ الأَوائِـل عِلْمٌ تُعْـرَف بـه أوائـلُ الـوقـائـعِ والأحْـداث والابتكارات وهو فَرْعٌ مِنْ فُرُوْعِ التاريخِ والمحـاضرات، كمـا يصفه حـاجي خليفـة في كشف الـظنـون (١: ١٩٩ ـ ٢٠٠)، فكثيـراً مـا يتساءل المرءُ عن أَوَّلِ مَنْ فَعَـلَ كذا، وأول مَنْ صَنَـعَ هذا، أو أوَّلِ مَنْ قـالَ كَيْتَ وكَيْتَ... الـخ، ولهـذا اهتمَّ العَـرَبُ في القـديمِ والحديثِ في التأليف في هذا الباب.

ويبدو أنَّ هذا اللون من التأليف قديمٌ في المكتبة العربية. وقد اتَّصلَ طريفُـهُ بتالِـدِهِ، فلدينا أسمـاءٌ لمؤلِّفِيْن ضَرَبُـوا سَهْماً في هـذا المضمار منذ مطلعِ القرنِ الثالثِ الهجري. وثمة إشارات أخرى إلى مؤلفين تتـراوح وفيـاتهم مـا بين القـرنين الثـالث، والحـادي عشـر الهجـريَّيْن. ومن المعروف أن كثيـراً من مؤلَّفـات هؤلاء وأولئـك قـد ضـاع، ولم يصل إلينـا إلاَّ القليل منهـا. وسنعرض الآن لأسمـاء من ألَّف في باب (الأوائل) مراعِيْن التعاقب التاريخي لتلك الأسماء:

١ ـ ابن الكلبي (نحو ٢٠٦ هـ). وكتابه (الأوائل) ذكره ابن النديم في الفهرست ١٠٩ ـ ط تجدد.

٢ ـ المدائني: علي بن محمد (٢٢٥ هـ). وله مُصَنَّف اسمه (الأوائل) ذَكَرَهُ ياقوت الحموي في معجم الأدباء (١٤ : ١٣٨) ـ ط الرفاعي.

٣ ـ أحمد بن أبي عبد الله البُرْقي (٢٧٤ أو ٢٨٠ هـ). وورد في معجم الأدباء «الرقّي» وهو في معجم المؤلفين (٢ : ٩٧) «البُرْقي» على الصواب. وقد ذكر كتابه (الأوائل) ياقوت في معجم الأدباء (٤ : ١٣٥) ـ ط الرفاعي.

٤ ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر النبيل المعروف بأبي عاصم الضحّاك (٢٨٧ هـ). وكتابه (الأوائل من المُسْنَد) ذكره (كارل بروكلمان) في تاريخ الأدب العربي (٣: ٣١٧) ومنه نسخة مخطوطة في الظاهرية ضمن المجموع رقم ١٠٨٨ ـ انظر فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية، المجاميع (١ : ٢٤٥). وقد نُشِرَ هذا الكتاب في بيروت ودمشق عام ١٩٨٥ بتحقيق عبد الله الجبوري، وكذلك نَشَرَهُ في الكويت عام ١٤٠٥ هـ السيد محمد ابن ناصر العجمي.

٥ ـ أبو عَروبة الحرَّاني (٣١٨ هـ). وكتابه (الأوائل) أشار إليه البحَّاثة (فؤاد سزكين) في كتابه: تاريخ التراث العربي ـ الترجمة العربية (مج ١، ١ : ٣٤٨) وقال: ذكره ابن حجر في الإصابة (٣ : ٢٣٥).

٦ ـ أبو يعقوب اسحق بن سليمان الطبيب القيرواني (٣٢٠هـ). وكتابه (الأوائل والأقاويل) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (٢ : ٢٧٥).

٧ ـ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ). وكتابه (الأوائل) طبع في بيروت عام ١٩٨٣، بتحقيق محمد شكور ابن محمود الحاجي أمرير. وأشار (فؤاد سزكين) إلى أن ثمَّة نسخةً خَطِّيَّة لهذا الكتاب في المتحف البريطاني ـ الملحق، مخطوطات شرقية ٢/١٥٣٠ ـ الأوراق ١٨٩ ب ـ ١٩٦، ٨٦٦ هـ) ـ انظر (تاريخ التراث العربي الترجمة العربية مج ١، ١ : ٣٩٥). ويبدو أنَّ المُحَقِّقَ لم يطلع على مخطوطة المتحف البريطاني السابقة الذكر.

٨ ـ سعيد بن سعدون العطَّار (توفي قبل ٣٧٠هـ). وذكر كتابه ابن النديم في الفهرست ١٩٧ ـ ط رضا تجدد.

٩ ـ المرزباني (٣٨٤هـ) وكتابه الأوائل أُشِيرَ إليه في الفهرست ١٤٨، وقال ابن النديم فيه: «فيه أخبار الفُرْس القُدَماء وأهل العدْل والتوحيد، وشيء آخر من مجالسهم ونظرهم، نحو مائة وخمسين ورقة».

١٠ ـ العسكري، الحسن بن عبد الله (٣٩٥ هـ)، وكتابه (الأوائل) طُبِعَ بدمشق، بتحقيق السيدَيْن محمد المصري ووليد قَصَّاب، ضمن منشورات وزارة الثقافة لعامَيْ ٧٥ ـ ١٩٧٦.

١١ ـ محمد بن عبد الله الشبلي (٧٦٩ هـ) وكتابه: محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل، ومنه نسخة مصورة عن مخطوطة له في دار الكتب المصرية، في مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٢ ـ كمال الدين عبد الرحمن العتائقي الحلّي، وصَنَّفَ كتابه سنة ٧٨٨هـ، ومنه نسخة بخط المؤلف في الخزانة الغروية ـ انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢ : ٢٥٣).

١٣ ـ ابن خطيب داريا محمد بن أحمد بن سليمان (٨١٠ هـ) ـ انظر كشف الظنون (١ : ١٩٩).

١٤ ـ أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، وكتابه: إقامة الدلائل على معرفة الأوائل.

١٥ ـ إبراهيم بن عمر السوبيني (٨٥٨هـ) وكتابه: مختصر محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل، وهو اختصار لكتاب محاسن الوسائل للشبلي المتقدّم ذِكْرُهُ ـ كشف الظنون (١ : ٢٠٠).

١٦ ـ أبو بكر تقي الدين بن زيد الجِراعي الحنبلي (٨٨٣هـ)، وكتابه (الأوائل) هو الذي نقدِّمه للقُرَّاء اليوم، وسيأتي كلامنا عليه بعد قليل.

١٧ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) وكتابه: الوسائل في معرفة الأوائل نُشِر في القاهرة سنة ١٩٨٠، بتحقيق إبراهيم العدوي، وعلي محمد عمر. وذكر (بروكلمان) أنَّ مُصَنِّفاً، لم يذكر اسمه، وَضَعَ كتاباً سَمَّاه تذكرة

الأوائل في إصلاح كتاب الوسائل للسيوطي، وهو في باريس، أول ٥٩٣١ انظر تاريخ الأدب العربي (٢ : ٢٥٣).

١٨ ـ محمد بن علي بن طولون (٩٥٣هـ). وعنوان كتابه: عنوان الرسائل في معرفة الأوائل. وذكره الزركليُّ في الأعلام (٦ : ٢٩١)، وأشار إلى أنه لم يزل مخطوطاً.

١٩ ـ علاء الدين علي دده، وقد فَرَغَ من تأليف كتابه: محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، سنة ٩٩٨هـ. وطبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٣٠٠هـ. وهو شديد الاتِّكاء على كتاب السيوطي الآنف الذكر.

٢٠ ـ المولى عثمان بن محمد المعروف بدوقاكين زاده الرومي (١٠١٣هـ) وكتابه: أزهار الخمائل في وصف الأوائل، وهو مطبوع.

وكذلك حَوَتْ بعض الكتب فُصُولاً مُهِمَّة عن الأوائل وأخبارهم، لعلَّ أهمها:

١ ـ المعارف لابن قتيبة (٢٧٦هـ).

٢ ـ المحاسن والمساوىء للبيهقي (٤٥٨هـ).

٣ ـ تلقيح فُهُوم الأثر لابن الجوزي (٥٩٧هـ).

٤ ـ صُبْح الأعشى للقلقشندي (٨٢١هـ).

وَلَسْنا هنا بصدد تقييم جميع هذه المُصَنَّفات، فالكثير منها قد

ضاع، أو لم يُطْبَعَ بَعْدُ، أما ما بين أيدينا من كتب الأوائل المستقِلَّة بذاتها فهو، فيما نعلم، كتاب الأوائل من المسند لأبي عاصم الضحَّاك، (٢٨٧هـ)، وكتاب الأوائل للطبراني (٣٦٠هـ)، والأوائل للعسكري (٣٩٥هـ)، وكتاب السيوطي (٩١١هـ) وكتاب علي دده السكتوراي الذي فرغ من تأليفه سنة (٩٩٨هـ)، وكتاب أزهار الخمائل لدوقاكين زاده الرومي (١٠٣هـ). وها نحن اليوم نقدِّمُ للقُرَّاء كتاباً جديداً في الأوائل لأبي بكر الجِراعي الدمشقي الحنبلي (٨٨٣هـ). وهو الأثر الأول الذي يُطْبَع لهذا العَلَمِ الدمشقي ـ فيما نعلم. فَمن هو أبو بكر الجراعي الدمشقي؟

ثانياً ـ المُؤَلِّف:

مؤلِّفنا شيخٌ وفقيه حنبلي يُعْرَف بـ «الجِراعي» نِسْبةً إلى (جِراع) من أعمال نابلس. ولكن أبا بكر تقي الدين بن زيد لم يَبْقَ في بلده (جراع)، بل تنقَّل في مناطق شتَّى، إلى أن استقرَّ به المطاف بدمشق، فمات بها في رجب سنة (٨٨٣هـ).

والمصادر التي تَرْجَمتْ له تُمكِّننا من الحديث عن مراحل معينة في حياتِهِ، لعلَّ أبرزها نشأته وتكونه في (جراع)، ثم ارتحاله إلى دمشق سنة (٨٤٢هـ)، وإلى القاهرة سنة (٨٦١هـ)، ثم إلى مكَّة سنة (٨٧٥هـ)، وعودته أخيراً إلى دمشق، وتدريسه فيها بالمدرسة العُمَرية الواقعة في الصالحية على سفح جبل قاسيون.

ويبدو أن السخاوي (٩٠٢هـ) مُؤَلِّف الضوء اللامع كان من أبرز

من تَـرْجَمَ لهذا العَلَمِ الحنبلي، فقـد قال في اسمـه ونشأتـه الأولى: «أبـو بكـر بن زيـد بن أبي بكـر بن زيـد بن عمـرو بن محمـود التقي الحَسَني الجـراعي الـدمشقي الصـالحي الحنـبلي. . . ويُـعْـرَف بالجراعي. وذُكِر أنه من ذريَّة الشيخ أحمد البدوي. وُلِـدَ تقريبـاً في سنة خمس وعشرين وثمانمائة بجراع من أعمال نابلس، وقـرأ القرآن عند يحيى العبـدوسي والعمـدة والعـزيـزي في التفسيـر، والخـرْقي والنـظام المذهب، كـلاهما في الفِقْـه. والمُلْحة، وبعض أَلْفيـة ابن مالك، ونحـو ثُلُثَيْ جَمع الجـوامع، وألفيـة شعبان الآثـاري بتمامهـا وغيرها» (الضوء اللامع ١١: ٣٢).

والـراجح أن أبا بكر الجراعي قد أنجـز قراءاتـه هذه في بيئتـه الأولى قُرْب نابلس. ذلـك أنه قَـدِمَ إلى دمشق، وله من العمـر سبعة عشر عاماً، أي سنة ٨٤٢هـ. وكان في دمشق آنئِذٍ دير للحنابلة بسَفْح جبل قاسيـون، وبوسـطه مدرسـة كبيرة، تُـدْعَى المدرسـة العُمَريـة، أسَّسهـا أبو عمـر الكبير (٥٢٨ ـ ٦٠٧هـ) المـولود في (جَمَّـاعيـل)، والمهاجر إلى دمشق في إثْرِ استيـلاء الفرنجة على الأرض المُقَدَّسة. (انـظر الدارس في تـاريخ المـدارس ٢: ١٠٠، والقلائـد الجوهـرية ١: ١٦٥ فما بعدها).

وكانت تلك المدرسة هي البيئة الثانية التي أسهمت في تكوين أبي بكـر تقي الـدين بن زيـد الجـراعي، ففي دمشق أخـذ أبـو بكـر «الفِقْـه عن التقي بن قندس، ولازمـه، وبـه تخـرَّج وعليـه انتفـع في الفقه وأصوله والفرائض والعربية والمعاني والبيان. ولازم الشيخ عبد

الـرحمن بن سليمـان الحنبلي، وكـذا أخـذ الفـرائض عن الشمس السيلي وغيـره. ولزم الاشتغـال حتى برع، وصـار من أعيان فُضَـلاء مـذهبه بـدمشق، وتصدَّى للتـدريس والإفتاء والإفـادة، بل نـاب في القضاء» (الضوء اللامع ١١ : ٣٢).

ويبدو أن أبا بكر لم يكتفِ بما لـدى شيوخ المـدرسة العُمَـرية من علومٍ ومعـارف، فقد ارتحـل إلى بعلبك، وسمـع فيهـا صحيـح البخـاري، وكذلـك قرأ سنن ابن مـاجه على بـرهان الـدين بن مفلح (٨٨٤هـ). وقـال النعيمي (٩٢٧هـ): إنه سمـع على أبي بكـر شيئـاً منهـا (الدارس في تـاريـخ المـدارس ٢ :٥٨، وقضـاة دمشق لابن طولون ٣٠١)، فأبو بكر إذاً كان شيخاً للنُعَيمي. كما أنـه كان شيخـاً لجمال الدين بن يوسف عبد الهادي الذي قرأ عليه المقنع (مختصر طبقات الحنابلة للشطي ٧٤ ـ ٧٥).

وقـد ارتحل الشيـخ الجراعي إلى القـاهرة سنـة (٨٦١هـ) أيام قاضي القضاة عز الدين الكناني، فاستخلفه الأخير في الحُكْم وباشر عنـه بالمـدرسة الصـالحية (انـظر المنهـج الأحمـد للنعيمي مـج ٢، ٢ :٥٠٧، وشـذرات الذهب ٧ :٣٣٧). وذكـر السخاوي أنَّ أبـا بكر الحنبلي طاف بالقاهرة على مَنْ بقي هُناك «كالسيـد النسَّابـة، والعَلَم البلقيني، والجـلال المحلي، وأم هانىء الهـورينيـة من المسنـدين، وقرأ عليَّ قِطْعة من القول البـديع، وتنـاول مني جميعه مـع الإجازة، وكذلك قرأ على التقي الحصني، وعلى القاضي عز الدين يسيـراً في المنـطق وغيره. وعـرض عليه النيـابة، فمـا امتنع خَـوْفاً من انقـطاع

التودُّد، وحَضَر دروس ابن الهمام، وأخذ عنه جماعة من المصريين، وربما أفتى، وهو في القاهرة» (الضوء اللامع ١١ : ٣٢ ـ ٣٣).

والحقُّ أنَّ الجراعي قد أفتى، وهو بمصر، فقد ذكر (العُلَيْمي) من جملة فتاويه أنَّ قاضي القضاة عز الدين الكناني المُتَقدِّم ذِكْره، سُئِلَ عن مَنْ عليه دَيْن مُؤَجَّل، وقَصَد السَّفَرَ، وخشي صاحب الدين من حُلُولِهِ قَبْلَ عود الغريم، فطلب منه ذَهَباً أو ضامِناً فامتنع، وعجز عن رَهْنٍ أو ضامِن، فهلْ يُحْبَس أم لا، فأجاب قاضي القضاة عز الدين: إن لغريمه منْعَه من السَّفَر حتى يوثِّق برهْنٍ أو كفيل. قال: وأما حَبْسُهُ فلا أعرف فيه نَقْلاً، والمسألة مُشْكِلة جدّا. فَسُئِل الشيخ تقي الدين الجراعي عن ذلك، فأجاب: «إنَّه لا يُحْبَس، لكنه يُمْنَعُ من السَّفَر» (المنهج الأحمد للنعيمي مج ٢، ٢ : ٥٠٧).

ولسْنا نعرف ما المدَّة التي أَمْضاها الجراعي في مصر، ولكننا نعرف أنه حَجَّ مِراراً، وجاور في مكَّة سنة (٨٧٥هـ). وهناك قرأ مُسْنَد إمامه بتمامه على الشيخ النجم بن فهد، وعمل قصيدة نظم فيها سند المُسْمِع، وامتدحه فيها أنشدها يوم خَتَمه، وكتبها عنه المُسْمِع، أولها:

الحمدُ للَّهِ الذي هَدَانا وكَمْ لَهُ مِنْ نِعْمَةٍ حَبانا

وكذا كَتَبَ عِدَّةَ قصائد من نظمِه. وهذا الخبر الذي أورده السخاوي يرسم ملمحاً جديداً من ملامح شخصية أبي بكر الجراعي، وهو نظم الشعر.

وخلاصة القول في شخصية هذا العالم والفقيه الحنبلي أنه «كان إماماً علاَّمةً ذكيّاً طَلْق العبارة فصيحاً دَيِّناً طارحاً للتكلُّف مُقْبلاً على شأنِه ساعِياً في ترقِّي نفسه في العِلْمِ والعمل. ومحاسِنُهُ جَمَّةٌ» (الضَّوء اللامع ١١ : ٣٣).

ويمكن أن نلاحظ أن وَفْرة العلوم التي حَصَّلها أبو بكر، وسعة الاطِّلاع التي تَمتَّع بها، قد أهَّلاه ليكون مُعلِّماً ومدرساً، فمن أخباره أيضاً أنه كان شيخاً من شيوخ المدرسة العُمَرية. وهي مدرسة تقع في دير الحنابلة في سفح قاسيون. وقد قال فيها الشيخ جمال الدين ابن عبد الهادي: «هذه المدرسة عظيمة لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها» (انظر منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ٢٤٤). ومن المعروف أن كتب المكتبة العمرية، أو بعضها، كانت إحدى مكونات المكتبة الظاهرية بدمشق في هذا العصر (منادمة الأطلال ١٢٠). ولا نعرف بالضبط متى بدأ شيخنا الجراعي التدريس فيها. ولكن يمكن القول: إنه كان يتولَّى حلقة يوم السبت، ويقال: إنه ناب عن ابن عبادة في حلقة يوم الثلاثاء. وذلك إلى جانب الشيوخ الحنابلة: برهان الدين بن مفلح، وعلاء الدين المرداوي، وشهاب الدين العسكري، وغيرهم (انظر الدارس في تاريخ المدارس «المدرسة العمرية»، والقلائد الجوهرية لابن طولون ٧٣، ومختصر تنبيه الطالب للعاموي ١٣٠ ـ ١٣١).

وفاته:

توفي أبو بكر بن زيد الجراعي ليلة الخميس حادي عشر رجب

سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة بصالحية دمشق (الضوء اللامع ١١ : ٣٣، والمنهج الأحمد ٢، ٢ : ٥٠٨، وشذرات الذهب ٧ : ٣٣٧).

وذكر ابن طولون (٩٥٣هـ) أن قبره يقع في الجهة الشرقية من جبل قاسيون، ويرقد بجواره أيضاً أخوه الشيخ بهاء الدين عبد الله الجراعي، وجرارعة ومرادوة كثيرون (القلائد الجوهرية ٢ : ٤٥١).

مؤلفاته :

إنَّ حياةَ هذا الشيخ الحنبلي لم تكنْ وقْفاً على التَّعلُّم والأَخْذِ والتتلمذ، بل جاوزت هذا إلى العطاءِ والتأليف والتَّصْنيف، فقد ذكرت المصادر التي ترجمت له مجموعة من كُتُبه، تمكنَّا من إحصاء أحد عشر كتاباً منها، وهي بحسب ترتيبها الألفبائي :

[١] الأوائل :

وهو المخطوط الذي ننشره اليوم بعد أن وُفِّقنا في الحصول على نسخةٍ له بخط صاحبِه، وسيأتي الحديث عنه بعد قليل.

[٢] تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد :

وقد ذكره الزركلي في الأعلام (٢ : ٦٤). وقال عنه : «جَعَلَهُ تاريخاً لمكَّة والمدينة والمسجد الأقصى، ثم ذكر أحكام سائر المساجد». وأشار إليه أبو بكر نفسه في كتابه هذا (الأوائل) في باب المساجد والعيدين، وسمَّاهُ : أحكام المساجد.

[٣] ـ الترشيح في مسائل الترجيح :

وعزاه له السخاويُّ في الضوء اللامع (١١ : ٣٢)، والبغدادي

في إيضاح المكنون (١ : ٢٨١)، والزركلي في الأعلام (٢ : ٦٤)، وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (٣ : ٦٢).

[٤] ـ تصحيح الخلاف المُطْلَق:

وذكره ابن العماد والحنبلي في شذرات الذهب (٧ : ٣٣٧)، وكحالة في معجم المؤلفين (٣ : ٦٢).

[٥] ـ حلية الطراز في حل مسائل الألغاز:

ونَسَبه إلى أبي بكر الجراعي السخاويُّ في الضوء اللامع (١١ : ٣٢)، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٧ : ٣٣٧) وسمَّاهُ: الألْغاز الفقهية، ونعته بأنه مجلَّد لطيف، والزركلي في الأعلام (٢ : ٦٤)، وقال عنه: «وهو بخطِّهِ عندي». ومن هذا الكتاب نُسختان في دار الكتب المصرية، وفي آخر النسخة الثانية فتيا وردت من القُدْس أوائل رجب سنة ٨٦٤ هـ في مدلول لفظة كنيسة ما هو، وهل يجوز إحداثها في بلاد الإسلام (مخطوط رقم ٢٢٨ مجاميع ـ انظر فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية ١ : ٥٤٩). وقد سُمِّيَ هذا الكتاب عند عمر رضا كحالة: الألغاز الفقهية ـ معجم المؤلفين (٣ : ٦٢).

[٦] ـ شرح أصول ابن اللحَّام:

وذكره ابنُ العمادِ الحنبلي في شذرات الذهب (٧ : ٣٣٧)، وحاجي خليفة في كشف الظنون (١١١)، فقال في أصول ابن اللحام: «وشرحه تقي الدين أبو بكر بن زيد الجراعي المتوفى سنة

٨٨٣، وهو شرح ممزوج: أوله: الحَمْدُ لله على أفضالِهِ» كشف الظنون١١١.

[٧] ـ غاية المطلب في معرفة المذهب:

وعزاهُ إلى أبي بكر الجراعي السخاويُّ في الضوء اللامع (١١: ٣٢)، وقال فيه: «اختصره من فروع ابن مفلح، واعتنى فيه بتجريد المسائل الزائدة على الخرقي في مُجَلَّد». وذكره العُلَيْمي فقال: وَقَفْتُ عليه» المنهج الأحمد (مج٢، ٢: ٥٠٧). وكذلك ذكره البغدادي في إيضاح المكنون، وسمَّاه: غاية المطلب في فروع الحنابلة (إيضاح المكنون ٢: ١٤٢). وأشار إليه كحالة في معجم المؤلفين (٣: ٦٢).

[٨] ـ فضائل الدُّرَر في موافقات عُمَر:

ذكره الزركلي في الأعلام (٢: ٦٤).

[٩] ـ مختصر أحكام النساء لابن الجوزي:

ونسبه إلى الجراعي الزركليُّ في الأعلام (٢: ٦٤).

[١٠] ـ صورة فُتْيا لَهُ:

ذكرت في فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية (١: ٥٤٩، ٥٥٠)

[١١] ـ قصائد وأشعار:

أشار إليها السخاوي في الضوء اللامع (١١: ٣٣).

ويهمُّنا من هذه المؤلَّفات، التي عصفت بجُلِّها يَدُ القدر، أن

نقف عند أحدها، وهو كتاب الأوائل الذي زَوَّدَتْنا بصورة عن مخطوطته الآنسة (آنكا فون كوكيلكن) من جمهورية ألمانية الاتحادية، فلها نُسجّل الشكر والامتنان.

ثالثاً ـ كتاب الأوائل:

مخطوطة هذا الكتاب توجد ضِمْن مجموع في مكتبة برلين بألمانية الاتِّحادية رقمه٩٣٦٨. وهي تقع في١٩ ورقة منه (مِنْ ٩٧ب ـ ١١٥ أ). وقياس الورقة ٢٢,٥×١٧سم. وعدد السُّطور في الصفحة الواحدة يتراوح بين ٢٢ و٢٦ سطراً. وفي كل سطر ما بين ١٣ و١٥ كلمة. والخط عادي مُهْمَل في كثير من الكلمات.

والنُّسْخة التي نَتحدَّثُ عنها نسخة في منتهى النفاسة، فقد كُتبت بخط يد المؤلِّف، ووقع الفراغ منها في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة (٨٨٣هـ)، فقد جاء في الورقة الأخيرة من المخطوطة، هذا النص الثمين: «وكانَ الفَرَاغُ منْهُ في ثاني عشر شهر ربيع الأول عام ٨٨٣ بصالحية دمشق الشام على يد أبي بكر بن زيد الجراعي الحنبلي، وهو مُؤلِّفُهُ وجامِعُهُ غَفَرَ الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات. والحمد الله الملك المجيد حمداً لا ينقطع ولا يبيد، وصلَّى على سيدنا محمد خاتم النبيين والمُرْسلين، وعلى جميع عِباد الله الصالحين، وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ومما يلاحظه المرء أن هذا المُصَنِّف كان آخر مُصَنفات

أبي بكر بن زيد الجراعي الدمشقي، ذلك أنه ـ كما تقدَّم ـ مات في السنة ذاتها التي فَرَغَ فيها من إعداد هذا الكتاب، وهي سنة (٨٨٣هـ). وإذا كان قد فَرَغَ من كتابه هذا (الأوائل) في ١٢ ربيع الأول ٨٨٣هـ،ومات في ١١ رجب ٨٨٣هـ، فإن أربعة شهور فقط تقع بين فراغه من (أوائله)، ووفاته. والتدقيق في النسخة الخطية لهذا الكتاب يُرجِّح أن أبا بكر الجراعي لم يَتَسنَّ له، فيما يبدو، أن يُراجِعَ مُصَنَّفَهُ هذا، فبقي فيه من سَبْقِ القلم إشارات تدل على أنَّ قراءة ثانية من أبي بكر لمؤلَّفه الأخير، لم تقع، من ذلك قوله في الباب الثامن عشر: «أول خصمَيْن يومَ القيامةِ جارَيْن» والصواب: «جاران». ومن ذلك وهمه في إثبات النون في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، أول قدومه على المدينة: «اطعموا الطعام، وافشوا السلام وصلوا الأرحام وصَلُّوا بالليل، والناس نِيام، تدخلون الجنَّة بسلام» والصواب: تدخلوا (انظر الباب التاسع عشر). ومن ذلك سَهْوُهُ عن إتمام رسم كلمة «أول» في عبارته: «إن ديلم الجيشاني أ. . وافد» (انظر الباب العشرين).

ولكن هذا لا يمنع من ملاحظة، فحواها: أنَّ هذا الكتاب الذي أُلِّفَ، ولصاحبه ٥٨ سنة، من شأنه أن يكون قد أودِع خلاصة معارف أبي بكر وعلومه وخبراته.

والحقُّ أن (أوائل أبي بكر) تعكس معارف واسعة، وتكشف عن اطّلاع طيب على كتب كثيرة في التراث، ومؤلفات عديدة للسَّلف، طابعها العام ديني حنبلي نقلي. وقد أحْصَيْتُ مصادرَ أبي

بكـر في مخطوطتـه هذه، فبلغت نيِّفـاً وستين كتـابـاً، كـانت خـزائن المكتبـة العمريـة بصالحيـة دمشق، هي التي أمدَّتـهُ بها فيمـا نظن. وكثير من هذه الكتب مُؤلَّفات في الحديث والفِقْه والأصول والتاريخ. وبعضهـا كتب في الفن الذي ينتمي إليـه الكتاب ذاتـه، مثـل كتـاب الأوائل للطبراني ـ الـذي يبـدو أن شيخنا الجـراعي قد استـوعبه في كتابه هذا، أوكاد، ومثل كتاب الأوائل لأبي هلال العسكـري، الذي أكثر أبو بكر من الاتكاءعليه، كما أكثـر من الاتكاء على نقـول كثيرة من كتب لابن أبي شيبـــة، والـدميـــاطي، وابن الجـوزي، لم تـــزل مخطوطة، أو لم تُعْرَف بعد.

وقـد أَغْرَتْني أَوْجُـهُ التشـابـه بين كتابي الأوائـل لأبي هـلال، وأبي بكر، أن أَجري هـذه المقارنـة الموجـزة بينهما، فلعلَّهـا تعـطي صورة أولية عن كتاب أبي بكر هذا الذي نتحدَّث عنه:

١ ـ ألَّف أبو هلال كتابه (الأوائل) سنة (٣٩٥هـ) كمـا يقول في آخـر إحـدى نُسَخ الكتـاب المطبـوع (انظر المقـدمة ص ١٥ ـ ١٦). وكذلك ألَّف أبو بكر الحنبلي كتابه هـذا سنة (٨٨٣هـ).والسنتـان المذكورتان، هما آخر سني حياة كُـلٍّ منهما. وهـذا يعني أنَّ كِلا الكتابين دال على اكتمال ثقافة صاحبه، وتمام نضجه وتكوّنه.

٢ ـ إن الطابع التاريخي والأدبي يغلب على (أوائل) أبي هـلال، في حين يغلب الـطابع الـديني والفقهي والحنبلي على (أوائـل) أبي بكر الجراعي.

٣ ـ لم يُراعِ أبو بكـر الترتيب الـزمني في (أوائله)، فكان بذا مُخالِفاً

لمنهج أبي هِلال الذي وقف الباب الأول والثاني على بعض الأوليات في الجاهلية، والباب الثالث على أوليات الرسول ﷺ، والرابع على الصحابة والتابعين، والخامس على ملوك الإسلام. . . الخ. ومبدأ التصنيف والتبويب مبدأ يلحظه المرء في كثير من كتب أبي هلال، وخاصة في كتابه الأوائل.

٤ ـ قَسَّمَ العسكري (أوائله) إلى عشرة أبواب، فقسَّم أبو بكر (أوائله) إلى عشرين باباً، أولها: في خِصال الفطرة والوضوء وما يتعلَّق به، وآخرها في أشياء منثورة.

٥ ـ وقف أبو هلال الباب الأخير عنده على «أشياء متفرِّقة»، وفعل أبو بكر فِعْله، فوقف بابه الأخير على «أشياء منثورة».

منهج التحقيق:

لم أجد لكتاب (الأوائل) غير هذه النسخة التي كُتِبت بخط المؤلف، لذا أخرجت الكتاب عنها صانِعاً مايلي:

١ ـ أَعْطَيْتُ الأوراق المخطوطة، ضمن المجموع الذي حوى كتاب الأوائل، أرقاماً جديدة، تبدأ ب (ق ١/ب) وتنتهي ب (ق ١٩/أ).

٢ ـ ضَبَطْتُ الكلمات المُشْكِلة التي تحتاج إلى ضَبْط، وخاصّة ما تَضَمَّنهُ الكتاب من الآيات القُرْآنية، والأبيات الشعرية، والأقوال المأثورة.

٣ ـ خرَّجتُ الآيات القرآنية الواردة بذكر اسم السورة، ورقمها، ورقم الآية فيها.

٤ ـ أعَدْتُ كثيراً من نُقُول المؤلّف إلى مصادرها المباشرة، وهي مصادر كثيرة جداً، وحين تعذَّر عليَّ هذا، كنْتُ أشير إلى مكان النص في غير مصادر المؤلف المباشرة، وأُضِيْفُ إليه ما عسى أن يكون فيه توضيح، أو إكمال، أو مخالفة، أو شيء من هذا القبيل.

٥ ـ عرَّفتُ بإيجاز باسماء الأعلام الواردة في النص، من خلال كتب التراجم والرجال عامةً، والأعلام للزركلي خاصَّةً.

٦ ـ صَحَّحتُ رسم بعض الألفاظ المخالفة لقواعد كتابتنا اليوم، دون أن أشير إلى ذلك في الهوامش، دَفْعاً لإثقالها بما لا طائل وراءه.

٧ ـ ذَيَّلتُ الكتاب بفهارس نافعه، وختمته بمصادر المقدمة والتحقيق.

والله الموفّق، وحسبي الله ونِعْمَ الوكِيل.

دمشق في ١٥ مُحَرَّم ١٤٠٨هـ
الموافق لِـ ٨ أيلول ١٩٨٧م.

عادل الفريجات